التاريخ فى سير أبطاله

أحمد عرابى

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف

حل البارودى محل شريف وفى البلاد ما فيها من أثر تلك المذكرة التى جاءت فى تلك الظروف التى بينا دليلاً على سوء تدبير واضعيها وعلى قصر نظرهم ورعونتهم . ولكن ما لنا نشير إلى قصر نظر الدولتين فيما فعلتا ونحن لا يتداخلنا شك فى أنهما كانتا تريان عاقبة فعلتهما، وأنهما إنما أرادتا إثارة الخواطر وزيادة أسباب الخلاف بين الخديو وزعماء البلاد المدنيين منهم والعسكريين ، فبهذا يتيسر لهما الوصول إلى الغرض المرسوم

وكان طبيعياً أن يسير البارودى على نهج غير الذى سار عليه شريف ، فهو بحكم مركزه بين الزعماء العسكريين، وبحكم الظروف التى أدت إلى استقالة شريف ، لم يكن ليستطيع أن يحمل نفسه على المهادنة والملاينة ، وإلا فعلام كان إحراج شريف ثم إخراجه من الحكم ؟

ومن ذلك يتبين لنا أن السياسة التى جرى عليها البارودى فى وزارته لم يكن له منتدح عنها ، وأن مردها فى الواقع إلى مسلك الدولتين ، وعلى ذلك فمن الظلم أن نرجع باللوم كله على تلك الوزارة فيما ارتكبت من أخطاء ، فإن جانباً كبيراً من اللوم بل لعل اللوم كله يقع على الذين دفعوا الوزارة بقبيح تدبيرهم وسوء نيتهم فى تلك الطريق التى ما لبثت أن رأت نفسها فيه تخرج من أزمة لتدخل فى أزمة غيرها

وهكذا تدفع الدولتان البلاد فى طريق العنف والثورة دفعاً ثم تتهمانها مع ذلك بالغوضى وتجعلان من مبررات تدخلهما القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية وإنها لمن صنعهما ؛ ولن يكون فى صور الظلم أبلغ وأوجع من أن يضرب مضروف على رأسه فإذا نفر من الضرب وتأوه عد نفوره جموحاً واعتبر تأوهه ثورة ... !

وكان عرابى وزير الجهادية فى وزارة البارودى ، وأنعم عليه برتبة الباشوية؛ وهو يقول إنه قبلها هذه المرة كارهاً، فلولا أنه رأى أن المنصب يقتضى قبول الرتبة ما قبلها . وأنا أميل إلى تصديقه فيما يقول فليس فى الأمر ما يحمل على الريبة فى قوله ، وهو لا يسوق هذا القول مساق الفخر وإنما يسوقه بين براهينه على أنه لم يكن يوماً كما يدعى خصومه تحركه الأطماع الشخصية

وأما عن قبوله المنصب فما نظن أنه كان يستطيع أن يبقى بمعزل عن الوزارة وقد صار له فى سياسة البلاد هذا الشأن بعد حادث عابدين . وإنا لنعجب أشد العجب للذين يعيرون رجلاً لقبوله منصباً من المناصب ويتخذون ذلك القبول دليلاً على أنه يطلب الخير لنفسه فحسب ، فهل كانت المناصب عند الناس جميعاً وسيلة إلى إشباع المطامع وجلب المنافع الذاتية ؟ وأى شىء يجعل هذا لازمة حتمية للمنصب ؟ وأى شىء يمنع من أن يكون المنصب عند بعض الناس وسيلة إلى غاية جليلة شريفة هى العمل للصالح العام ؟ وأى قرينة تمنع من أن نسلك عرابياً فى سلك هؤلاء الداعين إلى الخير العام والذين يتخذون من المناصب أداة لخدمة المجتمع ؟ إن أبسط قواعد العدالة تضع المتهم على قدم المساواة مع البرىء حتى تثبت إدانته ، فأية إدانة يلصقها بعرابي أولئك الذين عابوا عليه دخول الوزارة ؛ إنهم إذ يتهمونه بالسعى إلى صالحه هو لا يعدون بذلك حدود

التهمة، فله على أسوأ الفروض موضع البرىء من العدالة حتى تثبت إدانته، وما أيسر أن تكال التهم لأى فرد من الناس فى غير حساب، وما أصعب البينة على الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ...

إن الذين يرون فى الحكم مغنماً لهم إنما هم أولئك المفرطون فى حقوق أوطانهم الماثلون للدخلاء فيها، والمستضعفون من الرجال، والذين فى قلوبهم مرض، والمغترون بالحياة وأوهامها، والماثلون بطونهم كما تأكل الأنعام؛ أما أولو النخوة والعزة من الرجال فلن تلهيهم عن دوافع نفوسهم الأبية الحياة الدنيا وزينتها؛ ولن تطفئ الحمية فى قلوبهم ما يحلى به الأغرار صدورهم من أوسمة، أو تزدهى أنفسهم الكبيرة الرتب والألقاب، أو يزيغ أبصارهم بريق الذهب، لأن هذه جميعاً عندهم مظاهر وهم يحتقرون كل مظهر، لأنهم يطلبون الجوهر. ومن كان فى هذه الدنيا كبيراً بنفسه فما به حاجة إلى أن يتكبر، ومن تكبر وهو بنفسه صغير فما زاد على أن أضاف إلى حقارة نفسه ما هو أحقر

ولقد كان عرابى كبير النفس كبير الآمال فكان المنصب عنده باباً من أبواب الجهاد ووسيلة من وسائله، فما يعيبه أن يدخل الحكم وإنما يعيبه أن يعرض عن الحكم وعلى الأخص فى مثل تلك الشدة التى ساق الطامعون إليها البلاد على غير إرادتها ...

على أن الناس ما كانوا ينظرون إلى عرابى نظرتهم إلى وزير من الوزراء فحسب، بل كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى الرجل الذى تعلق عليه الآمال فيما كانت البلاد مقبلة عليه، وإنما كانت تقوم نظرتهم على ما بلوا بأنفسهم من إخلاصه، وما شهدوا من بسالته وحميته، وعلى ذلك فما زاده المنصب فى أعين الناس مثل ما يطلبه غيره ليزداد به من جاه أو شرف، وأى شرف يطمع فيه الرجل هو أعظم من أن يكون فى بنى قومه معقد الرجاء وموضع الثقة ؟

ولقد كان عرابى فى الوزارة إذا أردنا الحق أكثر من وزير فكانت الكلمة كلمته وكان الرأى رأيه، أراد ذلك أو لم يرده، ونقول أراده أو لم يرده لأنه بات فى الزعماء رجلاً ليس للزعماء مثل ماله فى قلوب الناس من مكانة ومن سحر. وهل كان سعد زغلول فى كرسى الرياسة كسواه من رؤساء الوزارات، ليس لشخصه من تأثير فى قلوب الناس إلا ما تبثه هيبة المنصب ورهبته ؟ أم كان سعد فى الناس رجلاً غير ما ألفوا تحف به هالة من أمجاده فتخلق له شخصية وسطاً بين الملائكة والناس ؟ وهل ازداد سعد بالمنصب شيئاً فى أعين الناس أم أن المنصب هو الذى ازداد به علواً ومهابة ؟ على هذا القياس صور لنفسك شخصية عرابى بين قومه يومئذ مع تذكر الفرق بين جيل عرابى وجيل سعد ومواهب عرابى

كان على وزارة البارودى بادئ الأمر أن تواجه أزمة الميزانية؛ وكان عنصرا هذه الأزمة الدولتين المتجنيتين على البلاد ونواب الشعب الناضبين لكرامة بلادهم المتمسكين بحقهم أمام باطل أعدائهم، وكان من الطبيعى أن تعمل وزارة البارودى أحد الزعماء العسكريين، والتى كان عرابى نفسه أحد وزرائها، على تحقيق آمال البلاد، بل لقد كان أمراً حتمياً على تلك الوزارة أن تعمل هذا فعلى هذا الأساس كان قيامها بالحكم

قامت وزارة البارودى على إرادة الأمة ما فى ذلك ريب ؛ فإن النواب حينما أظهروا أسفهم لشريف أن يكون المجيب لمطالبهم رجلا غيره، وحينما ذهبوا إلى الخديو يشكون إليه أمرهم كانوا معبرين فى ذلك عن مشيئة الأمة، وآية ذلك أن الخديو لما سألهم بأى حق يطلبون إقالة شريف كان جوابهم « هذه إرادة الأمة »

ولم يسع الخديو إلا أن يذعن — ولكن على طريقته — لإرادة الأمة هذه، فدعا شريفاً والقنصلين الأجنبيين وعرض عليهما الأمر فلم يكن أمام شريف غير الاستقالة. ثم إن الخديو دعا إليه زعماء النواب وسألهم كما أسلفنا عمن يرضون لرياسة الوزارة، فبعد أن بينوا له أن ذلك من حقه اختاروا البارودى واشترطوا أن يكون قيام وزارته على أساس إجابة مطالب النواب[1]

ولقد أضاف الخديو إلى أخطائه خطأ جديداً بقبوله هذا الأساس فمن حقه وحده اختيار رئيس وزرائه، ولكنه خطأ حتى هذه الخطوة بإشارة القنصلين، فلقد أوهما أن فى هذا خيراً له، فيه يخلو من التبعة ويلقيها على عاتق النواب والزعماء ... ولكنهما فى الحقيقة كانا يريدان أن يوسعا مدى الخلف بين الخديو والبلاد؛ ومن السهل عليهما أن يوحيا إليه على لسان أعوانهما بعد ذلك أنه أصبح وليس له من الأمر شىء

على أن مالت وكلفن وأشياعهما ما لبثوا أن أذاعوا فى مصر وفى أوربا عن الوزارة كل سوء ورموها بكل باطل من الاتهام،

(١) مقدمة كتاب التاريخ السرى بقلم الأستاذ عبد القادر حمزة

فهي وزارة عسكرية محضة لا تعرف سياسة أو تنظر فى عاقبة أمر من الأمور وإنما قوام أعمالها العنف والثورة ؛ وهى وزارة لا تحسب لأى سلطة غيرها حساباً فليس للخديو وجود فعلى أمامها ، وليس للأجانب على ما لهم فى مصر من دون أى حق أو شبه حق ... إلى غير ذلك من اللغو والإفك

أما عن عرابى نفسه فقد خرج بأوفر نصيب من التهم الباطلة ، ومن هذه التهم ما عزى إليه على لسان جريدة التيمس أنه هدد شريفاً وأنه شهر سيفه فى وجه سلطان باشا رئيس المجلس وهدده بتيتيم أطفاله . ولقد بلغ من رواج هذه الإشاعة أن أثبتها ماليت فى يومياته ، بل لقد أثبت ما هو أشد خطراً منها ألا وهو أن الخديو ما قبل استقالة شريف إلا تحت تأثير تهديد لا يقل عن هذا

ولقد استاء سلطان من هذه الفرية وحاول جهده تكذيبها . يقول مستر بلنت فى مذكراته[1]: «وقد ذهبت إلى منزل سلطان باشا فوجدت فيه طائفة كبيرة من النواب وكثيرين من ذوى الحيثيات والمكانة فى مصر وهم : الشيخ العباسى وعبد السلام باشا المويلحى وأحمد بك السيوفى وهمام أفندى حمادى وشديد بطرس أحد كبار النواب الأقباط وغيرهم . وقد أنكر هؤلاء جميعاً هم وسلطان باشا أنهم عملوا تحت تأثير أى تهديد، وتكلم سلطان باشا بلهجة شديدة مستنكراً القصة التى اخترعت عنه وقال : إن أحمد عرابى إنما هو بمثابة ابن لى ، وهو يعرف حق وواجبه ، فمكانه فى وزارة الحرب، ومكانى فى البرلمان، وهو ينصح لرأيى وليس يعتدى على حقوقى . أما من حيث استلاله السيف أمامى فهو لا يفعل ذلك إلا إذا رأى أعداء يهاجموننى ، وهذه حكايات لا يصدقها رجل يعرفنا نحن الاثنين وهى حكايات كاذبة لا أساس لها من الصحة ، ولك أن تثق أن أصغر نائب هنا يمثل الناس يحسن الحكم على ما يحتاجه أولئك الناس أفضل من أعظم جندى . ونحن نحترم أحمد عرابى لأننا نعرف أنه صادق الوطنية عظيم المواهب السياسية وليس لأنه جندى » ...

ثم يستطرد بلنت قائلاً : « وقد نقلت كلمات سلطان باشا هذه عن مذكرة لى أثبتها فيها يومئذ ، وقد أمضى الشيخ على ماليت لنشره مختلف الأباطيل وطلب منى أن أنقل إليه الحقائق وأن أبلغها لغلادستون وأنشرها فى الصحف ، وقد أرسلت الحكاية بالتفصيل إلى التيمس ، ولكنها لسبب لا أعرفه لم تنشرها ، وأرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه للمستر غلادستون ثم أرسلت خطاباً مستفيضاً ضمنته رأيى فى الموقف كله »

هذا هو كلام بلنت عن هذه الفرية ، وما أجمل ما وصف به سلطان عرابيا فهو لا يحترمه لأنه جندى ولكنه معجب بوطنيته مقدر لمواهبه السياسية ، ومثل هذا الكلام لا يصدر عن مثل سلطان عن خوف أو تملق ، فقد كان أكبر من أن يخاف وأعظم من أن يتملق ؛ وهو بطبعه شديد الكبر كثير الباهاة بجاهه والاعتزاز بثروته ؛ بل إن صدور هذا الكلام عن رجل هذه هى صفاته إنما يزيد فى قيمته ويجعله منه وثيقة خطيرة ندعو الذين يجهلون حقيقة عرابى إلى قراءتها فى روية وحسن طوية .

ويذكر بلنت أن التيمس لم تنشر تكذيبه لسبب لا يعرفه ، والأمر فى ذلك ظاهر لا يحتاج إلى طويل شرح ، فالتيمس وأضرابها من الصحف الإنجليزية تخدم قضية الاستعمار أبداً ، وهى خير من يدرك نيات الساسة فى بلدها وأول من يطلع على حقائق الأمور ، فلم تكن تجهل يومئذ ما تبيته انجلترة لقضية الأحرار فى مصر ، بل وما تنويه السياسة الإنجليزية العليا من الاستيلاء على مصر قبل أن تستولى عليها فرنسا ، ولذلك فهى ما كانت لتنشر رأياً مثل هذا الرأى يأتى على لسان رجل مثل بلنت فيكون به من الإنجليز شاهداً من أهلهم عليهم

(يتبع) الخفيف

(١) ترجمة البلاغ

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة أفرند شارع الفلكى لباب اللوق
ومن المكتبات المصرية الشهيرة